الفهرســت
لمحمد بن إسحاق النديم

واكب حركة التدوين التى بلغت أشدّها فى القرن الرابع الهجرى ، وشملت شتى جوانب الحضارة العربية ، من أدب ولغة ، وتاريخ وتشريع ، اهتمام بحيوات الرجال المستغلين بها ، يجمعون مادتها ، ويدوّنون آثارها ، ويؤلفون فيها . وظهر ذلك بدءاً ، وضرورة ، بين المجتهدين من الورّاقين المثقفين ، وهواة جمع الكتب ، وكانوا إلى جانب جمع الكتب وبيعها ونسخها يقومون بالتعليق عليها ، والتعريف بمؤلفيها ، لهم بمادتها ، وتجمعت عندهم مادة وفيرة ، تعنى أحياناً بحياة العلماء ، وتأخذ أحياناً أخرى شكل قوائم بمالهم من مؤلفات . ومالبث هذا الاتجاه أن تطوّر وأخذ أشكالاً متعددة على نحو ما سنشير إليه ، وأول كتاب نعرفه ، ووصلنا فعلاً ، واهتم بالتأريخ للكتب نفسها أساسا ، هو كتاب الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم .

نكاد لانعرف شيئاً عن حياة محمد بن إسحاق ، ولا عن مولده ، ولم يجد ياقوت الحموى قبلنا ، وهو من علماء القرن السادس الهجرى ، كتاباً يتعرف منه على النديم غير كتاب الفهرست نفسه ، فى نسخة حديثة ، تضم زيادات وإضافات ، وكان يملكها الوزير المغربى ، أبو القاسم الحسين بن على ، المتوفى ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م . والحق أننا نستطيع اعتماداً على الإشارات الواردة فى الكتاب أن نحدد خط سير حياة النديم أجمالاً .

يقول ابن اسحاق عند حديثه عن حياة أبى بكر محمد بن عبد الله البَرْدعى : « رأيته فى سنة أربعين وثلاثمائة ، وكان بى آنسا ، ويظُهر مذهب الاعتزال ، وكان خارجيًا ، وأحد فقهائهم » . ويتحدث عن بعض شيوخه ، فيقول : « حدثنى أبو الفرج الأصفهانى قال : أخبرنى .. » ، ويورد لنا فى مكان آخر شيئاً عن حياة أبى الفرج ، وأنه توفى عام ٣٦٠ هـ ، ونحن نعرف أن أبا الفرج ولد عام ٢٨٤ هـ ، ولابد من فارق فى السن بين الأستاذ والتلميذ ، لايقل عن أعوام عشرة

فى أدنى الفروض ، على هدى مانعرف من تقاليد التلقى والإجازة ، وأعراف الدرس والتدريس .

ويذكر الدكتور طيب زاده الإيرانى أنه عثر على تاريخ مولد ابن اسحاق ، فى كتاب هدية الأحباب ، وأنه « ولد فى جمادى الأولى سنة ٢٩٧ هـ » وهو نص تؤيده كل الدلائل ، ووجه الغرابة فقط أن يستقل به هذا الكتاب من دون المؤلفين أجمعين .

ونعرف أكيداً أنه عاش على الأقل إلى مابعد عام ٣٧٧ هـ ، فهو يحدثنا فى كتابه عن محمد بن عمران المرزبانى . وأن « أصله من خراسان ، وآخر من رأينا من الإخباريين والمصنفين ... ويحيا إلى وقتنا هذا ، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة » . ويقول فى مكان آخر : « هذا آخر ماصنفناه من المقالة الأولى من كتاب الفهرست ، إلى يوم السبت مستهل شعبان سنة سبع وسبعين وثلاثمائة » . ويتحدث عن إبراهيم الصابى فيقول : « مترسل بليغ شاعر ، عالم بالهندسة ، ومولده سنة نيّف وعشرين وثلاثمائة ، وتوفى قبل الثمانين والثلاثمائة » .

واختلف المؤرخون أيضاً فى تاريخ وفاته ، فينقل ابن حجر ، فى كتابه لسان الميزان ، عن أبى طاهر الكرخى ، أن وفاة محمد بن إسحاق كانت فى شعبان ٣٨٠ هـ . ويذكر الصفدى فى كتابه الوافى بالوفيات ، وابن النجار فى ذيل تاريخ بغداد ، أنه توفى يوم الأربعاء لعشرة أيام خلت من شعبان ٣٨٥ هـ ، من المحتمل أن ابن النجار ، وهو أسبق من الصفدى كتب الوفاة ٣٨٠ ، ولكن المؤرخين الذين أتوا بعده أخطأوا فى الصفر ، إذ كان يكتب قديماً على نحو يشتبه مع الرقم ٥ ، ونقل الذين جاءوا بعده التاريخ خطأ ونسبوه إليه .

ولم يحدد الذهبى فى كتابه تاريخ الإسلام تاريخاً محدداً للوفاة ، وجعلها فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، وارتأى آخرون رأيه ، فقالوا إنه توفى بعد عام ٤٠٠ هـ ، اعتمادا على أنه ذكر فى كتابه بعض المؤلفين الذين توفوا فى هذا التاريخ ، أو قريباً منه . ومثل هذا الاستنتاج ليس من الضرورى أن يكون حاسماً ، لأن مثل هذه الأخبار قد تكون من إضافات النساخ أو القراء بعد وفاة النديم ، وكان نفسه قد سمح بهذا ، فهو يذكر فى كتابه أثناء ترجمته لحياة الداعى إلى الله الحسن بن على بن الحسن بن زيد : « وزعم بعض الزيدية أن له نحواً من

مائة كتاب ، ولم نرها ، فإن رأى ناظر فى كتابنا شيئاً منها ألحقها بموضعها إن شاء الله تعالى » .

أقدم كتاب ورد فيه اسم المؤلف هو كتاب الفهرست نفسه ، إذ ورد فيه فى أماكن مختلفة منه قوله : **محمد بن إسحاق النديم** المعروف بأبى إسحاق الوراق ، على اختلاف فى أسماء جدوده ، وذكر الكنية أو عدم ذكرها ، وكنيته أبو الفرج ، وكنية أبيه أبو يعقوب . ثم ورد اسمه ونسبه مختصراً أو كاملاً فى معجم الأدباء لياقوت ، وفى الوافى بالوفيات للصفدى ، وفى لسان الميزان لابن حجر العسقلانى ، وفى كشف الظنون لحاجى خليفة ، وفى عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ، وآخرون ، وكان الذهبى وحده هو الذى نعته فى كتابه تاريخ الإسلام بأنه : محمد بن اسحاق بن النديم ، ومن عجب أن هذه التسمية الخاطئة شاعت ، وكتب لها الرواج ، وأصبح كتاب الفهرست يعرف بأنه لابن النديم بدل محمد بن اسحاق النديم .

وكفاه النديم نفسه مئونة الحديث عن شيوخه ، فقد عرض لهم فى أمكنة متفرقة من كتابه ، ويذكر من بينهم : الحسن بن سوار الخمار ، وأبا الفرج الأصفهانى ، وأبا سعيد السيرافى ، وأبا عبد الله المرزبانى ، وإسماعيل الصفار ، ويونس لقس ، ومحمد بن يوسف الناقط وآخرين ، وأما تلاميذه ، فيقول ابن النجار عن ذلك ، فى كتابه ذيل تاريخ بغداد « لا أعلم لأحدٍ عنه رواية » .

كان لنديم وراقاً ، واقترنت هذه الصفة به فى كتابه مراراً ، وكذلك فى المصادر التاريخية التى عرضت له ، وكلمة وراق تعنى يومها بائع الورق وصانعه ، وناسخ الكتاب ومجلده ، وبائعه ، ويقوم بها المرء كلها ، أو يقف نفسه على جانب منها ، ويمارسها عادة الأدباء والعلماء والشعراء واللغويين والنحاة ، وليس بذى فائدة أو أهمية أن نحاول معرفة أى لون منها كان يمارس النديم ، وأقرب الظن أنه أخذ من كل فن منها بطرف .

وقد امتلأت بغداد على أيام ابن اسحاق بحوانيت الوراقين ، وبلغت جملتها أكثر من مئة حانوت ، فى جانب من المدينة حمل اسم « سوق الوراقين » ، ولم تكن هذه مجرد دور لنسخ الكتب أو بيعها فحسب وأنما كانت منتديات أدبية وعلمية . يرتادها العلماء والشعراء والأدباء ، وتلتقى فيها الطبقات المثقفة ، ونعرف

من أخبار الجاحظ أنه كان يستأجر هذه الدكاكين ويبيت فيها قارئاً ، ولـه رسالة فى مدحهم ، وأخرى فى ذمهم ، على طريقته فى وصف الأضداد ، والمراوحة بين الذم والإطراء ، تفننا فى الكلام ، أو تماجنا أو تطربا . وهى مهنة لم يلتفت لها المؤرخون على أهميتها وجلال خطرها ، ولست أعرف من عرض لها مؤرخاً إلا عبد الرحمن السخاوى ، المتوفى ١٠٢٥ هـ = ١٦١٦ م ، فقد ألف عنها كتاباً بعنوان : « تنويق النطاقة فى علم الوراقة ، لم يصلنا ، ولانعرف منه غير العنوان .

لم يتحدث النديم عن نسبه البعيد وقومه ، ولم يعرض لذلك فى كتابه غير أننا نستنتج من طريقة تناوله للأخبار ، وتعاطفه مع بعض القضايا ، وحديثه عن بعض الرجال ، وتعمقه فى جوانب من التاريخ القديم ، أنه فارسى ومتشيع ، فقد أورد كثيراً من الأخبار عن إيران ورجالاتها قبل الإسلام ، وأسبغ عليهم أيضاً من صفات التكريم ، وعرض للغات الإيرانية القديمة وأنواع كتابتها ، وحتى العنوان الذى أعطاه لكتابه وهو « الفهرست » مأخوذ من اللغة الفارسية . وهو استنتاج يدعمه أن جل الوراقين فى العصر العباسى الأول بخاصة كانوا من الفرس .

قدم إسحاق النديم ، والد صاحبنا ، من فارس إلى بغداد فى تاريخ نجهله ، ومن مكان لانعرفه ، واحترف الوراقة ، وأورثها ابنه من بعده ، وأقام محمد الابن فيها ، يمارس مهنة أبيه ، ولانعرف له رحلة خارجها ، إلّا ماكان من ذهابه إلى الموصل ، كما نفهم من أماكن عديدة فى كتابه ، وقد أخطأ المستشرق فلوجل ، والذى قام بتحقيق الكتاب ونشره للمرة الأولى ، على نحو ماسنشير إليه فيما بعد ، خطأ فاحشاً ، فى فهم الخبر التالى ، وورد فى الفهرست تحت عنوان : « مذهب أهل الصين وشىء من أخبارهم » ، وهو : « ... ماحكاه لى الراهب لنجرانى الوارد من بلاد الصين فى سنة سبع وسبعين وثلثمائة ، هذا الرجل من أهل نجران أنفذه الجاثليق منذ سبع سنين إلى بلاد الصين وانفذ معه خمسة أناس من النصارى ممن يقوم بأمر الدين ، فعاد من الجماعة هذا الراهب ، وأخر بعد ست سنين ، فلقيه بدار الروم وراء البيعة .. » ، فظن فلوجل أن دار الروم هى مدينة القسطنطينية ، وذهب إلى أن محمد بن إسحاق هو الذى التقى فيها بهذا الراهب النجرانى ، خلف الكنيسة التى تحولت فيما بعد إلى مسجد أيا صوفيا . وهو استنتاج خاطئ تماماً ، لأن دار الروم التى يعنيها ابن اسحاق فى بغداد ، كان مجمع

أسرى الروم فى عهد الخليفة المهدى ، وسمح لهم ببناء كنيسة هناك ، أطلق عليها اسم دار الروم أيضاً واللقاء الذى تم بين محمد بن إسحاق والراهب النجرانى كان فى حى الروم من بغداد .

لانعرف من تراث **محمد بن إسحاق** غير كتابين ، ذكرهما ياقوت الحموى فى كتابه « إرشاد الأديب » ، أولهما اسمه « كتاب التشبيهات » ولم يصلنا هذا الكتاب ، ولا نعرف عنه غير عنوانه ، ولم يذكره أحد من المؤرخين غير ياقوت ، وثانيهما كتاب الفهرست ، وهو موضع درسنا .

* * *

كان **كتاب الفهرست** وحيداً فى بابه على أيامه ، ولو أننا نعرف مما أورده ابن اسحاق نفسه أن ثمة محاولات أخرى سبقته ، وإن لم تأخذ الطابع الذى ألف عليه كتابه تماماً ، فبواكير التأليف فى الأغانى تعود إلى العصر الأموى ، وأرخ اليعقوبى فى تاريخه لحركة الترجمة من اليونانية إلى العربية قبل أن يؤلف النديم كتابه بقرن كامل من الزمان .

وقد عُرِفَ الكتاب وشاع وملأ الأسماع باسم الفهرست ، وبهذا الاسم أشار إليه مؤلفه ، وبه عرفه القدماء ، وكان **حاجى خليفة** المؤرخ الوحيد من بينهم الذى أسماه « **فوز العلوم** » ، وهو اسم نلتقى به فى مخطوطة وحيدة ناقصة ، سنعرض لها فيما بعد وأسماه **ابن حجر** فى كتابه « لسان الميزان : **فهرست العلماء** ، والكلمة كما أشرنا من قبل ليست عربية ، وإنما هى منقولة عن الفارسية ، وجمعها الفهرسة ، أو الفهارس ، وهو الكتاب الذى تجمع فيه أسماء الكتب بنظام معين .

ولانعرف متى بدأ النديم يحرر كتابه ، وأخاله أخذ يجمع مادته على مهل منذ حياته الباكرة ، وظل يفعل ذلك إلى قريب من آخرها ، ثم بدأ يضعه فى شكله النهائى . ولدينا عن ذلك شواهد من الكتاب نفسه لا تخطئ ، فهو يذكر فى آخر المقالة العاشرة أنه انتهى منها عام ٣٧٧ هـ ، ونلتقى بالتاريخ نفسه فى الصفحة الأخيرة من المقالة الثانية ، وليس وارداً أنه ألف الكتاب كله فى عام واحد كما ارتأى بعضهم ، ولكن الأقرب أنه أعطى الكتاب لعدد من الأشخاص نساخين أو تلاميذ ، وأن الذين اضطلعوا بالقسمين الثانى والعاشر انتهيا منهما فى زمن واحد . ولايرد ذكر الانتهاء من الكتاب فى آخر أية مقالة أخرى ، ولو أنه فى

تضاعيف المقالة الثالثة وحدها أشار عند أخبار أبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى إلى أنها « آخر ماصنفناه من مقالة النحويين واللغويين إلى يوم السبت مستهل شعبان سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ، والحمد لله ، وصلى الله على محمد وآله ، ونسأل الله البقاء لمن صنفنا له .. » ، وجاء بعد هذه العبارة قوله : « وتوفى (أى أبى عبيد الله) رحمه الله فى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة » ، وهى ليست بخط المصنف ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن مثل هذه الزيادة مما تعود لنساخ أن يضيفوها إلى الكتاب بعد وفاة مؤلفه وبخاصة أنه أذن لهم فى هـا .

* * *

أوجز محمد بن إسحاق عمله وغايته ومنهجه فى مقدمة كتابه ، فهو « فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم ، الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم وأخبار مصنفيها ، وطبقات مؤلفيها ، وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ، ومبلغ أعمارهم ، وأوقات وفاتهم ، وأماكن بلدانهم ، ومناقبهم ومثالبهم ، منذ بتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا ، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للـجرة » .

وقد كسر محمد بن اسحاق كتابه على عشر مقالات ، جرياً على النهج المتبع فى التسمية يومها ، إذا كانوا يسمون « باب » الكتاب « مقالة » ، وكل « فصل » من الفصول فى داخل المقالة الكبيرة « فنًا » :

● المقالة الأولى وجاءت فى ثلاثة فنون .

الفن الأول فى وصف لغات الأمم من العرب والعجم ، ونعوت أقلامها ، وأنواع خطوطها ، وصور لنا بعضها كما شاهده فى خزائن بغداد العلمية ، وبخاصة خزانة المأمون ، وفيها رأى صورة القلم الحميرى ، يذكر ذلك صراحة ونصا ، يقول : « ورأيت أنا جزءاً من خزانة المأمون ترجمته : ما أقر بنسخه أمير المؤمنين عبد الله المأمون ، أكرمه الله ، من التراجم ، وكان فى جملته القلم الحميرى » ، ثم صوّر مثاله .

وبحكم مهنته كان عارفاً بأنواع الخطوط المختلفة والمتداولة على أيامه ، ومطنباً فى الحديث عنها ، وصوّر لنا مثال الخطين المكى والمدنى القديمين ، وميزّهما بأنهما فى « ألفاتها تعويج إلى يمنة اليد وأعلا الأصابع ، وفى شكلها انضجاع يسير » . كما قدم صوراً للخطوط القديمة ، كالصينى ، والسريانى ، والفارسى ، والـبرانى ،

والرومى (أى اليونانى) ، وقلم السند ، وقلم السودان .

وأبدى ملاحظة هامة عن الخطين الرومى والصينى ، إذ كان لهما خط خاص يشبه مانسميه اليوم بالاختزال ، يقول عن اليونان : « ولهم قلم يعرف بالساميا ، ولا نظير له عندنا ، فإن الحرف الواحد يحيط بالمعانى الكثيرة ، ويجمع عدة كلمات » و « جاءنا من بعلبك فى سنة ٤٨ (أى ٣٤٨ هـ) رجل زعم أنه يكتب بالساميه ، فجربنا عليه ما قال ، فأصبناه إذا تكلمنا بعشر كلمات أصغى إلينا ، ثم كتب كلمة ، فاستعدناها فأعادها بألفاظها » .

و « أن للصينيين قلماً تشبه مزيته مزية خط الساميا اليونانى ، ويسمى بكتابة المجموع » ، و « أن طالبا تعلم لدى **محمد بن زكريا الرازى** العربية ، كلاماً وخطا فى مدة خمسة أشهر حتى صار فصيحاً حاذقاً سريع اليد ، وقد استعمل قلم المجموع فى نقله لكتب جالينوس فى أقصر مدة عقب انتهائه من الدراسة العربية لدى الرازى » .

وفى حديثه عن الخطوط العربية يذكر « أنه يوجد فى خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم جدّ النبى صلى الله عليه وسلم » وأورد نصه ، وذكر أنه يشبه خط النساء ، مما يوحى بأنه رآه رأى العين .

وأتى على تطور صناعة الورق فى القديم وحتى أيامه ، بكلام علمى صحيح ودقيق فقد كان الناس فى البدء يكتبون على الطين ، ومنه الخزف المحروق ، ثم النحاس والحجارة والخشب ، وورق الشجر ، والجلود ، والقرطاس المصرى من قصب البردى ، والحرير الأبيض ، والرق والطوب المصرى ، والفلجان وهو جلود الحمير الوحشية ، وجلود الجواميس والبقر والغنم ، وكَتَبَ العرب أيضاً على أكتاف الإبل . واللخاف وهى الحجارة الرقاق البيض ، وعسب النخل ، والورق الصينى ويعمل من الحشيش ، والورق الخراسانى ويصنع من الكتان ، واختُرع فى أوائل الدولة العباسية .

وفى **الفن الثانى** أعطى تفصيلات وافية عن أسماء الشرائع المنزلة التى يعترف بها الإسلام ، وعددها ، وتحدث عن التوراة التى فى يد اليهود وأسماء كتبهم ، وأخبار علمائهم ومصنّفيهم ، وعن النصارى ومذاهبهم وعلمائهم وكتبهم ، ويعطى تصوراً واضحاً لرأى المسلمين فى ذلك الوقت فى هذه الكتب من حيث الصحة والتوثيق .

ويشير إلى أن صحف إبراهيم كانت لدى الصابئين ، وأن أحمد بن عبد الله ابن سلام مولى هارون الرشيد ترجمها إلى اللسان العربى ، وكان أحمد هذا عارفاً بالعبرانية واليونانية والصابئية علاوة على العربية .

وأوقف **الفن الثالث** كله على القرآن الكريم ، من حيث نزوله ، وخطه ، وترتيب آياته فى المصاحف المختلفة ، وجمعه على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجُماعه وقرائه وعلومه ، والقراءات المختلفة ، الشائع منها والشاذ ، وأخبار العلماء الذين اهتموا به ، قراءة أو تفسيراً ، والكتب المؤلفة فى هذا كله .

● **المقالة الثانية** ، وجاءت فى ثلاثة فنون أيضاً :

الفن الأول فى أخبار النحو والنحويين واللغويين من **البصريين** ، فصحاء العرب وأسماء كتبهم ، والآراء المختلفة التى وردت فى شأن نشأة النحو ، على يد من ، ويميل النديم إلى أنه **أبو الأسود الدؤلى** بإشارة من **الإمام على** رضى الله عنه ، وعن الذين أخذوا عنه وأخبارهم ، ورغم أهمية المعلومات التى يقدمها لنا ليس سهلاً أن نتصور أن الأمر تم بالبساطة التى ذكرها ، وأن يولد علم على هذا النحو الدقيق المنطقى الكامل ، دون سابق معرفة بالنحو وقواعده ومباحثه فى اللغات الأخرى .

الفن الثانى فى هذه المقالة فى أخبار العلماء من النحويين واللغويين من **الكوفيين** ، ويجعل القراء منهم ، على حين جاء **الفن الثالث** فى أخبار العلماء من النحويين وماصنفوه من الكتب ، ممن **خلط** بين المذهبين ، وضمّنه « أسماء قوم من جماعة لا تعرف أسماؤهم وأخبارهم على الاستقصاء » ، وألحق به قائمة بالكتب القديمة فى أخبار النحويين ، وفى غريب الحديث ، وفى النوادر ، وفى الانواء .

● **المقالة الثالثة** ، وجاءت فى ثلاثة فنون أيضاً :

الفن الأول ، فى أخبار الإخباريين والنسابين وأصحاب السير والأحداث وأسماء كتبهم ، **والثانى** فى أخبار الكتاب المترسِّلين ، وصناع الخراج ، وأسماء كتبهم وأصحاب الرسائل ، وأسماء الخطباء والبلغاء ، والكتب المجمع على جودتها ، وألوان الكتابة ، **والثالث** فى أخبار الأدباء والندماء والمغنيين ، والصفادمة ، والصفاعنه ، والمضحكين ، والشطرنجيين . وأسماء كتبهم ، وفيه قدّم مادة وفيرة عن كتب هشام الكلبى ، المتصلة بأخبار العرب فى الجاهلية ، والأحلاف ، والمآثر ،

والبيوتات ، والمنافرات ، والموءدات ، وأخبار الأوائل ، ويعنى بهم أصحاب الكهف ، ورَفْع عيسى ، وحِمْيَر وبنى إسرائيل ، ومايتصل منها بأديان العرب فى الجاهلية . وفيما قاربها ، وأخبار الإسلام ، والبلدان ، وأخبار الشعر وأيام العرب ، والأسمار والأخبار ونسب اليمن .

● **المقالة الرابعة** ، وهى فنان :

الفن الأول منها تناول أسماء رواة القبائل ، وأشعار الشعراء الجاهليين والإسلاميين إلى أول دولة بنى العباس ، وامرأ القيس ، وزهيرا ، وأسماء الشعراء الذين عمل **أبو سعيد السكرى** أشعارهم ، وأسماء من ناقض جريرًا وناقضه جرير ، وأسماء أشعار القبائل التى عملها السكرى .

الفن الثانى فى أخبار العلماء وأسماء ماصنفوه من الكتب ، ويحتوى على أسماء الشعراء المحدثين وبعض الإسلاميين ، ومقادير ماخرج من أشعارهم إلى عصره . وتحدث عن النساء الحرائر والمماليك ، وأسماء الشعراء الكتاب ، والشعراء المحدثون ممن ليسوا بكتّاب بعد الثلاث مئة إلى عصر النديم . وأتى على ماصنف فى سجع الحمام وأنسابها ، وما وجده من الكتب المصنفة فى الآداب لقوم لم يعرف حالهم على الاستقصاء ، والرسائل التى لم يجر ذكرها بذكر أربابها .

● **المقالة الخامسة** ، وهى فى الكلام والمتكلمين ، وجاءت فى خمسة فنون :

الفن الأول ، فى ابتداء أمر الكلام والمتكلمين من المعتزلة والمرجئة وأسماء كتبهم **والفن الثانى** فى أخبار العلماء وأسماء ماصنفوه من الكتب ، ويحتوى على أخبار متكلمى الشيعة الإمامية والزيدية . **والثالث** ويحتوى على أخبار متكلمى المجبرة ، وبابية الحشوية ، وأسماء كتبهم ، **والرابع** فى متكلمى الخوارج وأسماء كتبهم ، **والخامس** فى السيّاح والزهّاد والعبّاد والمتصوفة المتكلمين على الخطرات والوسوس . وفيه تحدث عن مذهب الإسماعيلية ، والكتب التى صُنعت فيه ، والحلاج ومذاهبه والحكايات عنه ، وأسماء كتبه والزيدية .

● **المقالة السادسة** ، فى أخبار العلماء وأسماء ماصنّفوه من الكتب فى أخبار الفقهاء ، وهى ثمانية فنون :

الفن الأول ، فى أخبار المالكية وكتبهم ، **والثانى** فى أخبار أبى حنيفة وأصحابه العراقيين أصحاب الرأى ، وأسماء ماصنفوه ، **والثالث** فى أخبار الشافعى

وأصحابه ، والرابع فى أخبار داود وأصحابه ، والخامس فى فقهاء الشيعة وأسماء ماصنفوّه من الكتب ، وحديث عن الكتب المصنفة فى الأصول والفقه وأسماء الذين صنفّوها . والسادس فى أخبار فقهاء أصحاب الحديث ، والسابع فى الطبرى وأصحابه ، والثامن فى فقهاء الشراة .

● المقالة السابعة ، وتحتوى على أخبار الفلاسفة والعلوم القديمة والكتب المصنفة فيها ، وهى ثلاثة فنون :

الفن الأول فى أخبار الفلاسفة الطبيعيين ، والمنطقيين . وأسماء كتبهم ونقولها وشروحها والموجود منها ، وماذكر ولم يوجد ، وماوُجد ثم أُعدم ، وأسماء المنقلة من اللغات الأخرى إلى اللسان العربى ، من الفارسى إلى العربى ، ومن الهندية والنبطية إلى العربى ، وأول من تكلم فى الفلسفة : أفلاطون ، وأخبار أرسطاليس وكتبه ، فى حديث مفصل ، وكتب المنطق والحسابيات ، والموسيقا ، والهندسة ، والفلك ، والطب ، والأحكام ، والجدل ، والنفس ، والسياسة ، والأحداث ، والرأى .

الفن الثانى ، ويحتوى على أخبار المهندسين والرياضيين والموسيقيين والمنجمين ، وصناع الآلات ، وأصحاب الحِيَل ، والحركات . والثالث ، فى أخبار الأطباء القدامى والمحدثين وأسماء ماصنّفوه من الكتب ، وعرض لابتداء الطب وأول من تكلم فيه من اليونانيين ، وأسماء أشهر الأطباء عندهم ، وحديثاً عند العرب و « ثبت الستة العشر الكتب التى يقرأها المتطببون على الولاء » الكتب الخارجة عنها ، ثم المحدثون منهم ومؤلفاتهم .

وإلى جانب الكتب والأخبار التى يقدمها لنا نقع على صفحة زاهية من تقدم الطب العربى ووسائله ، وطرائقه ، وبعضها يتفق مع القواعد العلمية الحديثة . ونعرف أن بغداد وحدها كان فيها على أيامه قرابة ثمان مئة طبيب ، وأن الخليفة المقتدر العباسى عيّن سنان بن ثابت بن قرّة الحرانى رئيساً لأطباء بغداد ، وأصدر قراراً بألاّ يمارس مهنة الطب إلاّ من يحمل شهادة وإذنا من كبير الأطباء سنان .

● المقالة الثامنة ، فى أخبار العلماء فى سائر العلوم القديمة والمحدثة ، وأسماء ما صنّفوه من الكتب ، وهى ثلاثة فنون :

الفن الأول ، فى أخبار المسامرين والمخرفين وأسماء الكتب المصنّفة فى السمار

والخرافات ، وما ترجم منها عن الفرس والهند والروم ، وأسماء كتب ملوك بابل وغيرهم من ملوك الطوائف وأحاديثهم ، وأسماء العشّاق الذين عشقوا فى الجاهلية والإسلام وما أُلّف فى أخبارهم ، وأسماء العشّاق من سائر الناس ، والحبائب المتطرفات ، وأسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم فى السمر ، وعشاق الإنس للجن والعكس .

وتضمن حديثاً وافياً عن الكتب المؤلفة فى عجائب البحار حتى أيامه .

الفن الثانى فى أخبار العلماء ، وأسماء ما صنّفوه من الكتب ، ويحتوى أخبار المُعَزِّمين والمشعبذين والسحرة ، وأصحاب النيرنجيات والحيل والطلاسم .

الفن الثالث عن كتب مصنّفة فى معانٍ شتى لايُعرف مصنفوها ولا مؤلفوها ، كأحاديث البطّالين ، وأسماء خرافات تعرف باللقب ، وأسماء قوم من المغفلين ألفت الكتب فى نوادرهم ، ومن أشهرهم جحا . وتضمن هذا الفصل قائمة بأسماء الكتب المتصلة بالجنس ، أو على حد تعبير النديم نفسه ، « المؤلفة فى الباه الفارسى والهندى والرومى والعربى ، وفى الخيلان ، والاختلاج ، والشامات ، والأكتاف » والكتب المؤلفة فى الفأل والزجر والحزر ، وفى الفروسية وحمل السلاح وآلات الحروب والتدبير ، عند جميع الأمم ، وفى البيطرة وعلاج الدواب ، وصفات الخيل ، واختياراتها فى الجوارح واللعب بها ، وعلاجاتها ، عند الفرس والروم والترك والعرب .

وحديث عن المؤلفات فى المواعظ والآداب والحكم للفرس والروم والهند والعرب ، مما يُعرف مؤلفه أو لا يعرف ، وفى تعبير الرؤيا ، والعطر ، والطبيخ ، وفى السمومات والصيدلة ، وفى التعاويذ والرقى .

● **المقالة التاسعة** ، وجاءت فى فنين :

الفن الأول منها فى أخبار العلماء وأسماء ما صنعوه من الكتب ، ويحتوى على وصف مذاهب الحرنانية الكلدانيين المعروفين بالصابئة ، ومذهب الثنوية الكلدانيين وأعيادهم ، وطرائفهم ، وشىء من تاريخهم ، والمانوية ومذهبهم ، وأتى عليه تفصيلاً ، وذكر تنقلهم فى البلدان ، ورؤساؤهم قديماً وحتى أيامه ، ورؤساؤهم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة ، وأسماء الفرق بين زمنى عيسى ومحمد ، من الحرميّة والزدكية والبابكية والسمنية والمسلميّة .

الفن الثانى فى المذاهب والاعتقادات ، لأهل الهند والصين ومصاقبها .

● المقالة العاشرة ، فى أخبار العلماء فى سائر العلوم القديمة والحديثة ، وأسماء ماصنّفوه من الكتب ، وهى آخر الكتاب ، وتضم أخبار الكيمائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين .

وفى هذه المقالة قدم لنا بعض المعلومات عن الأهرام المصرية ، وأشياء وتماثيل بعضها مغطى من ذهب أتى عليها الزمان ، ويذكر « أنه لم يتمكن من صعوده سوى هندى واحد كان مثار العجب فى عصره » ، أما الآن ، فى زمننا هذا ، فقد أصبح الصعود إلى قمة الهرم أمراً عادياً ، يمارسه هواة أو محترفون مدربون عليه ، يرتقون إلى قمته فى دقائق ، وفى أقل منها يهبطون إلى الأرض ، ويثبون على صخوره المهندسة الضخمة الهائلة وثوب السعدان ، ويبلغون أعلاه فى خمس دقائق ، ويعودون فى دقيقة ، على حين يحتاج الرجل العادى إلى نصف ساعة تقريباً ، ولم تفته أن يلحظ أن الخطوط التى على آثار مصر مجهولة ، لا يستطيع أحد قراءتها ، رغم قرب العهد بزمانها ، وظلت كذلك إلى أن فكت طلاسم حجر رشيد فى القرن الماضى ، فكان طريقنا إلى قراءتها .

كان النديم فيما يبدو يدوّن مايتجمع لديه من معلومات أو تراجم أولا بأول ، فإذا لم تكتمل له الترجمة أو الخبر أبقى له بياضاً ، رجاء أن يأتى وقت يكمله فيه فينتظم شمل الكتاب كله ، وكأن المنية عاجلته قبل أن ينجز ما أحب .

وهو إذا لم يقتنع بأى أمر صرّح برأيه فيه ، كما فعل مع رواية من زعم أن للحسن بن على بن زيد نحوا من مئة كتاب ، وهو منصف فى رواياته ، يتحرى الحق والحقيقة على قدر اجتهاده وفهمه ، فإذا غمض لديه أمر ولم يقتنع به ذكر ذلك صراحة ، وإذا نقصت معلوماته فى شىء أوكل تمامها لمن يجيئون بعده . وإذا التقى بمادة مكملة بعد فراغه من كتابة الفن أضافها فى آخره ، وأشار إلى المكان الذى تضاف إليه ، كقوله فى الفن الخامس من المقالة السادسة ، وهو يتحدث عن فقهاء الشيعة ، فقد ختمه بفقرة عن « آل يقطين » ثم أضاف تحت العنوان مباشرة : « يلحق بموضعه الأول » .

وتراجم العلماء فى الفهرست متفاوتة ، بعضها لا يتجاوز سطرًا واحداً تحت العنوان مثل : « معلم بن العميد ، واسمه محمد بن على بن سعيد وله من الكتب

كتاب أخبار العباسيين » ، وقد تقتصر على سطرين كترجمة حفصوية ، وكان من أوائل كُتّاب الخراج ، وقد تمتد إلى صفحتين ونصف من القطع الكبير الذى صدرت فيه طبعة فلوجل . وهو حين يعرض للتعريف بالعلماء يأتى على الكتب التى ألفوها ، ويأتى بهم ، تحت عنوان : « أخبار .. » .

اعتمد النديم فى جمع مادته على مصادر كثيرة ، سوف نقف عند الأهم منها ، ونشير إلى الباقى لماماً . يأتى فى مقدمة مصادره الأساسية :

● مؤلفات المدائنى ، أبو الحسن على بن محمد ، المتوفى عام ٢٣٥ هـ = ٨٥٠ م ، كان مؤرخاً واسع المعرفة ، متعدد الجوانب ، وأورد له النديم نفس أسماء ٢٣٩ مصنفاً ، بين كتاب ورسالة ، فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وفى تاريخ قريش وبعض القبائل ، وفى المغازى والفتوح ، وأرخ للخلفاء ، وترجم لبعض الأشخاص ، واعتمد عليه كثير من المؤرخين الذين جاءوا بعده ، مثل : البلاذرى والطبرى وياقوت ، وللأسف ضاعت مؤلفات المدائنى كلها ، ولم يصلنا منها سوى الجزأين الأول والثانى من كتابه المغازى ، ومانقل عنه الآخرون .

● مؤلفات ابن الكوفى ، أبو الحسن على بن محمد ، المتوفى عام ٣٤٨ هـ = ٩٦٠ م ، كان من جمّاعى الكتب ، وأصحاب الهوى فيها ، وجمع مكتبة حافلة ، تفرقت بعض مجلداتها فى العالم ، وكانت موجودة فى عصر القفطى وياقوت ، لكن إسهاماته مؤلفاً كانت قليلة ، ولم يذكر له النديم غير كتابين لا نعرف عنهما شيئاً ، وهما : « معانى الشعر واختلاف العلماء » و « كتاب القلائد والفرائد فى اللغة والشعر » وأضاف إليهما ياقوت ثالثا عن « الهمز » ، ويقول إنه أطلع على نسخة منه بخط المؤلف .

أفاد النديم من مكتبة ابن الكوفى الكبيرة ، فى نقل أسماء الكتب التى أوردها ، ولعله أفاد أيضاً من الملاحظات المختلفة التى وجدها على هوامش صفحات هذه الكتب ، أو فى كراسات تتضمن تعليقات عليها ، ومن المؤكد أنه أفاد من فهارسها ، ويشير نفسه إلى أنه نقل مؤلفات المدائنى من كتاب بخط ابن الكوفى ، كما أخذ عنه تراجم مجموعة من العلماء ، أو على حد تعبيره « طائفة أصبنا ذكرهم بخط ابن لكوفى » ، ويذكر أيضاً أنه قرأ كراسا له به ملاحظات لغوية وأدبية وتاريخية .

● واعتمد على **مصادر أخرى** يشير إليها فى كتابه بين حين وآخر ، ولكن أغلبها لم يصلنا ، فقد اقتبس كثيراً من كتاب أخبار النحويين لأبى سعيد السيرافى ، واعتمد على أبى الفرج الأصفهانى ، وعلى كتاب لثعلب بخط ابن مقلة ، المتوفى ٣٢٨ هـ = ٩٤٠ ، شيخ الخطاطين فى عصرهم وحتى أيامنا ، وعلى أبى الفتح النحوى ، وعلى كتاب أخبار علماء الكوفة لأبى الطيب أخى الإمام الشافعى ، وعلى قوائم الكتب المختلفة فى أيامه ، وكتب أخرى تاريخية ، وفى الفرق والأديان ، وفى الطبيعيات ، مترجمة أو لباحثين عرب ، وكما نعرف منه كانت مكتبة جعفر بن الخليفة المتوكل ، والمتوفى عام ٣٢٠ هـ = ٩٣٢ م ، تضم كتاباً بخط مصنفه ، يتناول المعارف الطبيعية عند العرب ، وربما عند اليونان أيضاً ، وأفاد من تاريخ الأطباء لإسحاق بن حنين ، وهو كتاب وصلنا ، ونشره وترجمه إلى اللغة الإنجليزية المستشرق الألمانى فرانز روزنتال .

ينقل النديم معلوماته عن كتب غالباً ، وهو يشير إلى ذلك صراحة فى عبارات مختلفة ، كأن يقول : « قرأت بخط ... » ، أو « من خط ... » ، ويدقق أحياناً ، ويؤكد على روايته ، فيذكر : « قرأت بخط أبى على بن مقلة ماهذا نسخته ، أوردته على ترتيبه ، وبلفظه اقتضاء هذا الكتاب » . وفى أحايين قليلة يقول : « قال ... » ، وتعنى سمعت ، فإذا تلقى الخبر عن طريق رواية خاصة ، ذكر : « حدثنى ... » .

* * *

لدينا من **مخطوطات الكتاب** عدد لابأس به ، وتوجد فى أمكنة مختلفة من العالم ، وسنأتى عليها فيما يلى :

١ – نسخة فى مكتبة كوبريلى الوطنية فى استنبول تحت رقم ١٣٤٠ ، فى ١٧٩ ورقة ، ولا تحمل تاريخ نسخها ، ويرجح أنها ليست قديمة جداً .

٢ – نسخة أخرى فى المكتبة نفسها ، تحت رقم ١١٣٥ ، فى ١١٠ ورقة ، ونسخت عام ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) .

٣ – مخطوطة فى المكتبة الوطنية فى باريس تحت رقم ٤٤٥٧ ، فى ٢٣٠ ورقة ، ونسخت عام ٦٢٧ هـ (= ١٢٣٠ م) .

٤ – نسخة أخرى فى المكتبة نفسها ، تحت رقم ٤٤٥٨ ، فى ٢٤٦ ورقة ، وهى

نسخة حديثة ، منقوله عن المخطوطة رقم ١ فى تصنيفنا هذا .

٥ – نسخة فى مكتبة فيينا ، تحت رقم ٣٣ ، فى ١١٦ ورقة ، منقولة عن المخطوطة رقم ٢ فى تصنيفنا هذا ، ونسخت عام ١٨٤٠ م .

٦ – نسخة أخرى ، فى المكتبة نفسها ، تحت رقم ٣٤ ، فى ١٦٧ ورقة ، منقولة عن المخطوطة رقم ٢ فى تصنيفنا هذا .

٧ – نسخة فى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، تحت رقم ٤٨٨ .

٨ – مخطوطة فى مكتبة تطوان ، فى المغرب الأقصى .

٩ – نسخة فى المكتبة التيمورية فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم ١١٠ .

١٠ – نسخة فى مكتبة وزارة الأوقاف العراقية فى بغداد ، تحت رقم ٧٨٤ .

١١ – أوراق فى مجموع ، فى مكتبة ليدن فى هولندا ، تحت رقم ٢ ، وتشغل الأوراق من ٢٤٧ إلى ٢٥٤ ، وتتضمن جزءا بسيطاً من كتاب الفهرست ، ابتداء من المقالة السابعة .

١٢ – نسخة فى المكتبة السعيدية ، فى تونك راجستان فى الهند ، وهى الوحيدة التى تحمل عنوان « فوز العلوم » ، وهى ناقصة ، فى ٤٤ ورقة ، وتعود إلى القرن الحادى عشر للهجرة ، وتبدأ بعد البسملة بشعر جحظة :

إذا ما ظمئت إلى ريقه جعلت المدامة منه بديلاً

وتليه ترجمة الكاتب اليونانى فلوطرخس Plutarchus (٥٠ – ١٢٥ م) . وتنتهى بالعبارة التالية : « تم الجزء الثانى من كتاب الفهرست بعون الله ولطفه ، ويتلوه إن شاء الله تعالى فى الجزء الثالث أخبار يحيى النحوى ، وكتبه حسن بن عبد الله سبط يحيى الجوهرى ، والحمد لله رب العالمين » .

١٣ – نسخة مكتبة تشستر بيتى فى دبلن عاصمة إيرلندا ، تحت رقم ٣٣١٥ ، فى ١١٩ ورقة ، من القرن الخامس الهجرى ، وهى منقولة عن نسخة للمؤلف ، ومسطرتها ٣٠ سطراً ، وتحتوى على المقالات الأربع الأولى ، ونبذة من أول المقالة الخامسة تنتهى بترجمة الناشىء الكبير ، وعبارة : « على ماحدثنى به ابن الجنيد » .

ويوجد فى المقالة الأولى من هذه النسخة خرم كبير ، حيث سقط منها مايقرب

من أربع عشرة صفحة ، تبتدئ بحديث المؤلف عن « القلم العبرانى » ، وتنتهى بأخبار « عبد الله بن عامر اليحصبى » ، وعبارة : « أحد السبعة ، ويكنى أبا عمران ، يقال إنه أخذ .. » .

ويوجد فى القسم الأعلى من الصفحة الأولى لهذه النسخة مستطيل كتب فيه بالخط النسخى الجميل : « كتاب الفهرست للنديم » ، وتحتها عبارة لواقف فى سبعة أسطر جلّل السواد بعض كلماتها ، ويتبيّن منها أن هذه النسخة كانت ملك أحمد باشا الجزار حاكم فلسطين خلال حملة نابليون بونابرت على مصر فلسطين ، وأنه أوقفها على جامع عكا بفلسطين ، على ألّا تخرج منه . ونص الوقفية : « وقف لله تعالى . أو قف وحبس وتصدق بهذا الكتاب الحاج أحمد باشا الجزار فى جامعه المبارك بعكا ... نور الأحمدية على طالب العلم ... بخطه وقفا صحيحا ... » . وجاء فوق السطر الثالث ، أعلى اسم أحمد باشا الجزار ، العبارة التالية ، بخط آخر : « ابتعناه ... أحمد بن على المقريزى ، سنة ٨٢٤ هـ » ، وهذه العبارة كُتبت زمن المقريزى نفسه ، وهو المؤرخ المصرى الشهير ، وقد توفى عام ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠ م .

وعلى هامش الصفحة نفسها من اليمين نجد العبارة التالية : « مؤلف هذا الكتاب أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب الورّاق ، المعروف بالنديم روى عن أبى سعيد السيرافى ، وأبى الفرج الأصفهانى ، وأبى عبد الله المرزبانى وآخرين ، ولم يرو عنه أحد . وتوفى يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان سنة ثمانين وثلاثمائة ببغداد ، وقد اتهم بالتشيع ، عفا الله عنه .

وبعد الصفحة الأولى يبدأ متن الكتاب بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم .. استعنت بالله الواحد القهّار » ، وقد جلّل السواد التام القسم الأيمن وأكثر الكلمات فى هذه الصفحة .

وعلى الهامش ، وفى أسفل الصفحات ، توجد عبارات كثيرة ، مثل : « إلى هنا بخط المصنف » و « بغير خط المصنف » و « عورض مع الأصل » ، و « المصنف رحمه الله » و « المنقول من دستوره وبخطه وعورض » .

وقبل كل مقالة توجد صفحة منفصلة كُتب عليها الرقم الترتيبى وما يتعلق بها ، كالجزء ، ومحتويات المقالة ، ونموذج من خط المصنف .

والأخطاء فى هذه النسخة قليلة جداً ، وساعد العثور عليها على تصحيح الأخطاء الكثيرة التى وجدت فى النسخ التى اعتمد عليها فلوجل ، عند طبع الكتاب ـ سنشير إلى ذلك فيما بعد .

ظلت المخطوطة فى مسجد أحمد باشا الجزار فى عكا ، ثم تعرضت للسرقة بعد وفاته ، خلال الفتن العاتية التى اجتاحت المنطقة ، وانتقل نصفها من يد إلى يد ، حتى وقع بيد يهودى يدعى « يهودا » ، فباعه إلى جبستر بيتى ، وهو الآن فى المكتبة التى تحمل اسمه فى مكتبة دبلن ، عاصمة إيرلندا .

١٤ – مخطوطة فى مكتبة شهيد على باشا فى استنبول ، تحت رقم ١٩٣٤ ، فى ١٨١ ورقة ، وتعود إلى القرن الخامس الهجرى ، ثم أضيف إليها ثلاثة أوراق فيما بعد .

فى صحة لمخطوطة الأولى ، من أعلى إلى اليمين ، توجد جملة « فى الأدبيات » ، وفوقها فى سطرين عبارة : « من ألطف نعم الله على عبده ولى الدين جار الله سنة ١٣١١ هـ ، وتحت هذه العبارة ختمان جلل السواد أحدهما ، وفى الثانى : « ولى الدين جار الله » .

وبعد هذه العبارة ، وفى الجهة نفسها ، كُتب فى شكل مخروطى : « ملكه العبد الفقير إلى عون الغفور الودود مسعود بن إبراهيم بن أمر الله بن عبدى ابن طورمش ، غفر الله له ولأسلافه ، ورضى عنهم ، بالشراء الشرعى بمدينة قسطنطينية المحروسة .

والصفحة الثانية بيضاء ، وفى الجهة اليمنى منها كتابة بالخط المكسر الفارسى الجيد : « كتاب فهرست أخبار العلماء والمحدثين لمحمد بن إسحق النديم » .

ثم يبدأ متن الكتاب فى الصفحة الثالثة ، وكتب فى أعلاها بخط نسخى جميل جداً كلمة « الوسطى » ، وفوقها بخط آخر ، وحبر مختلف : الفن الأول من المقالة الخمسة من الكتاب .

وفى إحدى الزوايا ختم مدور جاء فيه : « وقف هذا الكتاب أبو عبد الله ولى الدين جار الله ، بشرط ألّا يخرج من خزانة بناها بجامع سلطان محمد بقسطنطينية سنة .. » ، وجلل السواد تاريخ السنة ، ويبدو تحت الختم رقم ١٩٣٤ ، وهو رقم تسجيل مكتبة السليمانية فى استنبول .

وينقص هذه النسخة ترجمة الديصانية ، وسقط كبير من « مرقيونية » ، حيث يبدو مكانه صفحة بيضاء ، ولعل هذا هفوة من الناسخ ، كما جاء فى آخر حديثه عن المرقيونية .

وخط هذه النسخة يشبه خط نسخة جستر بيتى ، المذكورة فى رقم ٣ ، إلّا أنه أكثر وضوحا ، وقد جاءت المواضيع فى بعض الصفحات بشكل عمودى .

ويرى **السيد تجدد الإيرانى** ، محقق الكتاب ومترجمه إلى اللغة الفارسية ، أن هذه النسخة متممة لنسخة جستر بيتى السابقة ، وإنهما كتبتا فى فتر واحدة ، للأسباب التالية :

● أن هذه النسخة تحتوى من المقالة السادسة وحتى العاشرة على صفحة مستقلة قبل كل مقالة ، يكتب فيها رقم الجزء ومحتويات المقالة ، كما فى نسخة جستر بيتى ، وأن الخطين متشابهين فى النسختين .

● وأنها تبتدئ المقالة الخامسة مباشرة ، دون أية مقدمات ، بترجمة الواسطى ، مما يرجح أن هذه بقية المقالة الخامسة التى ظلت ناقصة فى نسخة جستر بيتى ، ولاتسبقها كالعادة صفحة مستقلة ، لأنها موجودة فعلا فى أول المقالة الخامسة فى نسخة جستر بيتى .

● توجد كلمة « عورض » فى أسفل الصفحات فى النسختين .

ومن هنا يرى **السيد تجدّد** أن هاتين النسختين تتم إحداهما الأخرى ، وأنهما يؤلفان نسخة واحدة .

وهو استنتاج جيد ، لايقلل من قيمته مايرد عليه من اختلاف حجم الورق فى كل واحدة منهما ، وتفاوت مسطرتيهما ، وتباين حجميهما ، فبينما يبلغ طول نسخة جستر بيتى ١٤ سم هو فى نسخة شهيد على ١١ ١/٢ سم فقط ، كما أن خط هذا أكثر إتقانا . وهو اعتراض وجيه ولكنه لايسقط رأى الباحث الايرانى ، إذ يمكن القول إنهما مجلدان ، وأن نسخة جستر بيتى تمثل الجزء الأول ونسخة ، شهيد على تمثل الجزء الثانى . أو أن الناسخ غيّر الورق أثناء النسخ لسبب أو لآخر ، أو أن الناسخ نفسه تغير لأمر طارئ .

* * *

كانت **الطبعة الأولى** لكتاب الفهرست من عمل المستشرق الألمانى **فلوجل** ،

وهو أول من اهتم به فى عصرنا الحديث ، بعد أن أمضى خمسة وعشرين عاما يبحث عن مخطوطاته وأخباره ، والحصول على متنه كاملا ، وتحقيقه وشرحه ، وقبل أن يحقق الغاية من الكتاب أسلم روحه فى ٥ يولية من عام ١٨٧٠ م ، ولما يطبع منه غير ست ورقات ، فرغب ابنه إلى عالمين « ألمانيين مستشرقين من أصدقاء أبيه ، هما : يوهانس روديجر وموللر أن يكملا المهمة ، فأشرف أولهما على طبع الكتاب وتصحيحه ، وأشرف الثانى على جمع الشروح والهوامش ، وصدر الكتاب فى ليبزج فى مجلدين ، عامى ١٨٧١و ١٨٧٢ م ، فى ٣٦٢ صفحة من القطع المتوسط تتضمن المتن ، إلى جانب ٣٤ صفحة فى اختلاف الكلمات والجمل . وصدر المجلد الثانى فى نفس القطع ، وجاء فى ٢٧٧ صفحة ، ويضم التعليقات ، وتراجم لبعض الشخصيات التى وردت فى الكتاب ، وبعض زيادات على المتن ذات فائدة كبيرة .

اعتمد فلوجل فى تحقيقه على المخطوطات أرقام : ٣ و ٥ و ٦ و ١١ من تصنيفنا ، وكانت مخطوطة شهيد على باشا ، وهى رقم ١٤ فى تصنيفنا ، أمام ناظريه ، ولكنه لم يعتمد عليها اعتمادا مباشرا ، أما بقية المخطوطات فلم يرها أو لم يفد منا على الاطلاق إنْ كان قد عرفها .

ولأن الكتاب طبع بعد وفاة محققه ، لم يقم المشرفان بعملهما كما يجب، ولم يؤديا المهمة بدقة ، أو لعل قدراتهما العلمية لم تساعدهما على أكثر مما فعلا ، فوقعت فى الكتاب أخطاء كثيرة فى المتن ، حتى أن بعض الصفحات فى مخطوطة شهيد على كُتبت بطريقة عمودية ، فقرآها خطأ بصورة أفقية ، وجاءت كلمات مرصوصة غير مفهومة .

ولم تكن الكتب العربية التى تنشر فى أوربا يومها تطبع بكميات كبيرة أو تجارية . وإنما يقتصرون فيها على ماهو ضرورى لأبحاث المستشرقين أنفسهم ، فى البلاد لأوربية المختلفة ، ومن ثم نفذت هذه الطبعة الأوربية فى زمن وجيز ، فطبع الكتاب ثانية فى القاهرة ، فى المطبعة الرحمانية عام ١٣٤٨ هـ = ١٩٣٠ م ، وهى إعادة لطبعة فوجل، بعد أن أضافوا إليها فى آخر الكتاب خمس ورقات تحتوى على التعريف الناقص ببعض رجال المعتزلة، تبدأ بحياة واصل بن عطاء وتنتهى بشيطان الطاق وكان المستشرق الهولندى هوتسما Houtsma قد نشرها فى مجلة WZKM عام ١٨٩٠، ووقع عليها أحمد تيمور باشا فأشار بأضافتها إلى الطبعة الأوربية.

وكانت **الطبعة الثالثة** فى طهران ، بتحقيق **رضا تجدد** ، وجاءت فى ٦١٧ صفحة من القطع الكبير ، واعتمد على المخطوطات رقم ١٢ و ١٣ و ١٤ من تصنيفنا ، ومستفيدا من طبعة فلوجل ، وأشار إلى الاختلافات الموجودة بينها وبين المخطوطات التى اعتمد عليها فى أسفل نسخته ، ورمز لها بحرف « ف » ، وأورد العبارات الزائدة فى النسخة الأم عن طبعة فلوجل بين قوسين ، والتى زادت فى طبعة فلوجل عن النسخة الأم بين قوسين أيضا ، ولكنه كتبها بحرف أسود مختلف عن الأصل ، وزاد ماوقع فى فى أواخر المقالة الرابعة ، وأوائل المقالة الخامسة ، مما يتعلق بالمعتزلة من تكملة الفهرست التى أشار بها أحمد تيمور باشا ورمز لها بالحرفين « تك » ، ووضعها فى مكانها من حواشى ذلك الفصل .

* * *

حين ننظر إلى **قيمة كتاب الفهرست** نجده من أهم كتب التراث العربى ، وأكثرها شمولا ، ولما كان المؤلف ، وأبوه من قبل ، يمارسان مهنة الوراقة ، فقد سهل له هذا أن يغشى مكتبات الوزراء والأعيان الحافلة بالكتب القيمة ، أتاح له أيضا أن ينقل خلاصة لها أثناء نسخها أو تجليدها ، وأن يحاول تحديد قيمتها المادية والعلمية، وان يتحدث إلى من يجالس من العلماء بأخبارها، وأن يسمع رأيهم فيها.

وقد مكنته حرفته أيضا أن يستوعب مادته جيدا ، ويتجلى ذلك واضحًا فيما عرف من فنون العلم ، و « تحققه بجميع الكتب » على حد تعبير ياقوت وحفظ لنا أسماء مئات من الكتب المفقودة ، ذهبت بها النكبات المختلفة التى اجتاحت العالم الإسلامى ، ولاسيما غزو التتار لبغداد ، ولولا كتاب الفهرست ماوقفنا على أسمائها ، ولاصفاتها ، ولضاعت معالمها إلى الأبد ، ومؤلفات **هشام الكلبى** المتوفى عام ٢٠٤ هـ= ٨١٩ م فى تاريخ عرب الجاهلية خير شاهد على هذا ، فقد أورد له : طسم وجديس ، وأقيال حمير ، وكتاب عدى بن زيد العبادى ، وملوك كندة ، وملوك اليمن من التبابعة ، وكتاب افتراق ولد نزار ، وكتاب تفرق الأزد ، وكتاب عاد الأولى ، وغيرها . وقد ضاعت كلها ، ولم يصلنا شىء منها ، ولكن الذى جاءوا بعد هشام الكلبى فى عصره أفادوا منها ، وبخاصة **الهمدانى** المتوفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٥٥ م ، فى كتابيه : الإكليل ، وصفة جزيرة العرب .

يقول **جستر بيتى** : « ليس كتاب الفهرست كتابا تاريخيا أو أدبيا أو علميا

فحسب ، وإنما هو دائرة معارف زمنه ، وقام بما تقوم به الآن لجان من العلماء والفضلاء المبرزين ، وتحت إشراف الجامعات والحكومات غالبا ، كدائرة المعارف البريطانية ، أو لاروس الفرنسية ، أو لغت نامه (دهمذا) الإيرانية ، ويكفى أن تطالع كتابه لتعرف مدى مابذل من جهد ، ومايملك من عبقرية وعلم ، وإحاطة تامة بمعالم عصره » .

وفى كتاب الفهرست مادة علمية جيدة عن **المكتبات** فى العالم القديم ، وجاء حديث النديم عنها شيقا ودقيقا بحكم أنه ينتمى إلى المهنة نفسها ، ويعرف أسرارها ، وعرض لها فى أمكنة متفرقة من الكتاب ، وتقدم مادة طيبة لمن يريد أن يؤرخ هذه المهنة ، فى هذه الفترة المبكرة من حياة الدولة الإسلامية .

فهو يذكر أن أول من أنشأ مكتبة علمية زاخرة هم الإيرانيون ، وكان مقرها مدينة أصفهان لجودة هوائها ، وكانوا يسمونها فى لغتهم « سارويه » ، وبقى بناء هذه المكتبة إلى زمن **أبى معشر** ، نجيح بن عبد الرحمن السندى المتوفى ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م ، وحينما تهدّمت وُجدت بها أصنافٌ من علوم الأوائل بالخط الفارسى القديم . وشاهد النديم لدى أبى الفضل بن العميد سنة ٣٤٠ هـ كتبا مُقطَّعة منها فى صناديق باللغة اليونانية ، وفيها أسماء الجيش ومبلغ أرزاقهم ، وكانت نتنة ، لما مكثت فى بغداد حَوْلاً جَفَّت وتغيَّرت ، وزالت الرائحة منها ، وذكر أن شيئا لايزال منها عند شيخه أبى سليمان .

ويحدثنا النديم أيضا عن رجل كان بمدينة الحديثة ، يُقال له محمد بن الحسين ، ويعرف بابن بعرة ، جمّاعة للكتب ، له خزانة لم ير لأحد مثلها كثرة ، تحتوى على قطعة من الكتب العربية فى النحو واللغة والأدب والكتب القديمة ، وأنه لقى هذا الرجل دفعات فأنس إليه ، وكان نفورا ضنينا بما عنده ، خائفا من بنى حمدان ، وأخرج له قمطرا كبيرا ، فيه نحو ثلاثمائة رطل : جلود فلجان ، وصكاك ، وقرطاس مصرى ، وورق صينى ، وورق تهامى ، وجلود آدم ، وورق خراسانى ، فيها تعليقات عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم ، وشىء من النحو والحكايات والاخبار والأسماء والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم .

ويذكر أن رجلاً من أهل الكوفة - ذهب عنه اسمه - كان مشتهرا بجمع الخطوط القديمة ، وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت بينهما ، وأفضال

من محمد بن الحسين عليه ، ومجانسة المذهب ، فإنه كان شيعيا ، فرآها وقلّبها فرأى عجبا ، إلّا أن الزمان قد أخلقها ، وعمل فيها عملاً أدرسها ، وأحرفها ، وكان على كل جزء ، أو ورقة ، أو مدرج ، توقيع بخطوط العلماء ، واحدا إثر واحد ، فذكر فيه خط من هو ، تحت كل توقيع توقيع آخر ، خمسة أوستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض ، ورأى فى جملتها مصحفا بخط خالد بن أبى الهياج صاحب علىّ رضى الله عنه ، ثم وصل هذه المصحف إلى أبى عبد الله بن حامى رحمه الله ، ورأى فيها بخط الإمامين الحسن والحسين ، ورأى عنده أمانات وعهودا بخط أمير المؤمنين على عليه السلام ، وبخط غيره من كتّاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط العلماء فى النحو واللغة مثل : أبى عمرو بن العلاء ، وأبى عمرو الشيبانى ، والأصمعى ، وابن الأعرابى ، وسيبويه والفرّاء والكسائى ، ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عُيَيْنة ، وسفيان الثورى ، والأوزاعى وغيرهم .

كان النديم ورّاقا ممتازا ، جيد التفكير ، واسع الاطلاع ، عميق النظر ثقة فى روايته ودرايته ، حاول أن يتحرّى الحق والحقيقة على قدر اجتهاده وفهمه ، فإذا غُمَّ عليه أمر ولم يقتنع به ذكر ذلك صراحة ، وإذا نقصت معلوماته فى شىء أوكل تمامها لمن يجيئون بعده .

ومع ذلك جاءت أخباره فى بعض المواضع متناقضة ، كأخباره عن حماد الراوية مثلا ، ربما لأنه كان يتلقاها من مصادر مختلفة متناقضة ، ولم تواته الفرصة ليمحصها ، ويصل إلى كلمة الحق فيها . أو اختلط أمرها عليه رغم التمحيص والمحاولة ، ومن هنا يجد الباحث نفسه مضطرا ، بين حين وآخر ، إلى أن يرفض له رأيا ، أو زعما ، أو مقولة ، دون تردد .

كذلك أهمل بعض الكتب فلم يذكرها ، رغم أهميتها البالغة ، وشهرة مؤلفيها ، ومعرفته بهم ، وإيراده لهم مؤلفات أخرى كثيرة ، والمثل الواضح لهذا « كتاب ذكر المسافات والاقاليم » لأبى زيد البلخى ، أحمد بن سهل ، المتوفى عام ٣٢٢ هـ = ٩٣٤ م ، فقد أهمله تماما رغم أنه أورد له أسماء ثلاثة وأربعين مصنّفا غيره ، لم يصلنا منها سوى « كتاب مصالح الأبدان والأنفس » ، ولّما يزل مخطوطًا فى مكتبة أياصوفيا .

وهذا الكتاب الذى أهمله بالغ الأهمية ، وتختلف أسماؤه باختلاف المصادر التى تعرض له ، فهو مرة « صور الأقاليم » ، وأحيانا « أشكال البلاد » وأخرى « ذكر المسافات والأقاليم » ، وتارة « تقويم البلدان » ، وقد ألفه البلخى فى شيخوخته حوالى عام ٣٠٨ هـ = ٩٢٠ م ، وهو فى أساسه كتاب خرائط ، وربما أقيم على أساس أطلس إسلامى أقدم تأليفا ، وكان محفوظا فى مكتبة كليدار[1] الامام ، وهو الأساس الذى قامت عليه المدرسة الجغرافية العربية القديمة .

ويدل لتباين فى عنوان الكتاب على أنه لم يكن معروفا فى صورته الأصلية على نحو واسع حتى فى عصر المؤلف ، وقد قدم لنا الجغرافى المقدسى ، الذى عاش بعد البلخى بنحو قرن ونصف من الزمان ، تعريفا جيدا وموجزا به ، وكان ياقوت الحموى عرفه ولكنه اقتصر على الإشارة إلى مؤلفه وحده .

وقد كان الظن حتى عهد قريب جدا أن الكتاب مفقود ، ولكن مخطوطته عثر عليها أخيرا . وتوجد فى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت فى المدينة المنورة ، وبها رسوم وخرائط ملوّنة ، وتعد ذخرا لايقدر بثمن ، ولعل أحد علمائنا فى الجغرافيا يقوم على تحقيقها ، فيلقى ضوءًا كاشفا على إنجازات العرب الأولى فى علم الجغرافيا .

لانعرف أحدا فى عصر النديم ، أو ماتلاه ، احتذى منواله ، واستخدم عنوان كتابه ، غير أبى جعفر محمد بن حسن الطوسى ، المتوفى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٨ م ، فقد وصلنا كتابه « الفهرست » ، وطبع فى المطبعة الحيدرية فى النجف الأشرف عام ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م . ويذكر حاجى خليفة كتابا ثالثا يحمل عنوان « فهرست العلوم » ألفه حافظ الدين محمد العجمى ، المتوفى ١٠٥٥ هـ = ١٦٤٥ م ، ولا أعرف عنه شيئا غير هذه الإشارة .

وبعد وفى ضوء ماذكرت ، فإن كتاب الفهرست لابن النديم لايزال ينتظر المحقق العربى المتمكن ، الذى يقوم عليه ، يضبط نصه ، ويخرجه إلى القارئ العربى فى الصورة الجديرة به ، وبتقدمنا فى هذا المجال أيضا .

---

(١) كليدار تعنى حامل المفتاح .